من أحاديث الإذاعة(*)

فى الـــــترام

للأســـــتاذ على الطنطاوى

يا سادتى ويا سيداتى . كنت راكباً أمس فى الترام ، أفكر فى موضوع أتحدث به إليكم ، فأسليكم وأفيدكم ، فلا يكون الحديث لذيذاً بلا نفع ، ولا نافعاً بلا لذة ، فكان يطير الموضوعات من رأسى ، هواء بارد يلفح الوجوه ، فيبلغ منها مثل ما تبلغ السياط ، فقمت إلى الباب لأغلقه فاستعصى علىّ ، فشددته فتأبى فجربت فيه الوسائل فما أجدت ، فتركته وقعدت . وصعد شاب مفتول العضل ، عريض المنكبين ، بادى القوة ، فجذبه فما استطاع فأمسكه بكلتا يديه ، ووضع قوته كلها فى ساعديه ، حتى احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، والباب على حاله ، فأغضى بصره حياء منا أن ينظر فى وجوهنا وقعد . وركب بعده شيخ وكهل

(*) كتب هذا الحديث لمحطة الشرق الأدنى . تسجل فى مصر وأذيع من يافا يوم (٢١) و (٢٢) مايو .

وامرأتان ، لم يكن فيهم إلا من جرب مثلما جربنا ، وخاب كما خبنا ...

فلما رأيت ذلك ، قلت مقالة أرخميدس فى أول الدهر : « أوريكا » ، وجدت الموضوع إنى سأجعل موضوع حديثى (فى الترام) ، فالترام يا سادة معرض الناس ، ومرآة الأمة ، وهو مسلاة لمن نشد تسلية ، ومدرسة لمن أراد استفادة ، وهو سينما أبطالها أناس صادقون ، لا (يمثلون) رواية وضعها كاتب ، ولكن يمرضون فيطرهم التى فطرهم الله عليها ، وأخلاقهم وطباعهم وكل صغيرة (فى الترام) تمثل كبيرة فى الحياة : هذا الباب المغلق مثلا عنوان فصل كبير من فصول حياتنا ، ونقص بيّن فى تربيتنا ، إذ ربما كان دفاع الباب أقلّ من قوة اثنين منا ، ولكنا أتيناه متفرقين ، كما نفعل فى كل أمر نرومه ، وإصلاح نطلبه ، تعمد له فرادى ، ونقصده أشتاتاً ، فلا نصل إلى مقصد ، ولا نبلغ غاية ، قد استقرت (الفردية) فى سلائقنا ، فترى الواحد منا يعمل ما لا تعمله الجماعة ، فإذا اجتمعنا أضعف بعضنا بعضاً ، أو استبد بعضنا ببعض ، وإذا نحن أردنا التخلص من هذا ، قفزنا من أول الخط إلى آخره ، فجاوزنا حد الاعتدال ، وتعدينا نطاق الممكن ، وأردنا أن نبنى الدار قبل أن نعدّ الحجارة ، ونصلح الأمة قبل أن نصلح الأفراد ، كأن الأمة مخلوق مستقل ، له طول وعرض وعمق وارتفاع . لا يا سادة ، ما الأمة إلا أنا وأنتم وهم وهن ، فإذا لم يصلح كل منا نفسه لم يكن للأمة صلاح .

هذا عيب كبير فينا دل عليه الحادث الصغير ، وما أكثر ما تدل الصغائر !

ركبت الترام مرة ، وكان مزدحماً يغصّ براكبيه ، فلا تبصر لون أرضه ، ولا تعرف من الازدحام طوله من عرضه ، وكان على المقعد إلى جنبى شيخ مسنّ أحسبه قد دخل فى السبعين ، وكان معه ابن سائل فى سحن ضحل لا غطاء له ولا قمر ، فكلما اهتز الترام ، أو تحرك الناس ، طار رشاشه على ثوبى الذى كنت أتجمل به أيام الحرب ، ولا أجد وأنا موظف السبيلَ إلى غيره ، فكنت أضم ثيابى إلىّ ، وأحاول أن ابتعد عنه ، ليدرك أذاه لى فيدفعه عنى ، فلا يدرك ولا يبالى ، فقلت له : « يا عم ، قد آذيتنا ... ولوثتنا بالحليب .... » فما كان منه إلا أن صرّخ تصريخاً جمع على أهل الترام ، وقال :

عباس محمود العقاد

— « اتق الله ، ما هذا الكفر ؟ ما هذا الجحود ؟ ألا تعرف قدر النعم ؟ إنه حليب طاهر ، فهل هو نجاسة ؟ حرام عليك » .

فتركته ودخلت بين الناس ، ووقفت مع الواقفين ، وقد كادت تتلامس الوجوه ، وتتلاقى الأنفاس ، وكدت أختنق ، وإذا بشاب على آخر طراز ... فى فمه سيكار أسود ضخم كأنه ذنب العَضْرَفُوط[1] ، يخرج منه دخان كأن رأسه ضراط الخناقس ، فوقف أمامى ، حتى أوشك أن يحرق بناره أنفى ، فقلت له : « انتبه يا أخى » ، فصاح : « وأين الحرية الشخصية ؟ وبأى حق تكلمنى ؟ » وأمثال هذا الهذيان ...

فرأيت فى ذلك مثالا لعيب آخر من عيوبنا ، إننا نأخذ المسائل مقلوبة ، ونفهمها على أضدادها ، فلا الشيخ فقه الدين وعرف الحلال من الحرام ، قبل أن يعظ ويفتى ، ولا الشاب عرف المدنية ، وأدرك أحوال أهلها ، قبل أن يهذى ويتفلسف ، الدين يحرم إيذاء الناس ، والمدنية تمنع التدخين فى الترام ، ولكنا نأخذ ما لا نعرف ، ونخوض فيما لا نعلم ، فكان فى حياتنا الشىء وضدّه ، اجتمعت فيها المتناقضات ، والتقت المختلفات ، كما يكون فى عصور الانتقال كلها ...

وصعدت الترام مرة عجوز متصابية متبرجة ، كأنّ وجهها خريطة حربية ، من كثرة الخطوط المرسومة عليه والألوان ، ففوق عينيها خطان أسودان مقوّسان ، وعلى خديها بقعتان حمراوان ، وشفتاها كأنهما قد غمستا بالماء المغلى فاحترقتا ثم زفتا ، فاجتمع عليهما الدم متجمداً فظيعاً ، فلم تعودا شفتين ولكن صارتا والعياذ بالله ، آفتين مشوّهتين ، وأظافر يديها كأظافر ذئبة افترست حَمَلا ، فهى طويلة محمرّة مخيفة ، فوقفت فى غرفة الرجال وهى مملوءة بالناس ، وإلى جنبها غرفة النساء فارغة مفتوحاً بابها ، فنظر الناس إليها متعجبين ، ثم ردّوا أبصارهم عنها منكرين ، فقالت : « ما فيكم واحد مؤدب ، يقوم للست يا عيب الشوم » .

فقال لها أحد الحاضرين . « تفضلى ، هذه غرفة النساء خالية » فنفضت يدها فى وجوهنا ، وقالت :

— أنتم (متأخرين) كثير ، (متوحشين) ما تعلتم التمدن .

ورأيت مرة شابين دخلا علىّ غرفة الترام ، يلبسان أردية بلا أردان ، وسراويل تكشف الساقان ، فألقى أحدهما بنفسه على المقعد فاضطجع اضطجاع العروس على سريرها ، ورفع الثانى رجلا فوق الرجل فعل الراقصة على مسرحها ، ثم تحدثا حديثاً مخلوطاً فيه العامية بالفرنسية بالانكليزية ، بالضحكات الخليعة ، والإشارات الخنثة ، تحدثا فى الأدب ، فكان من رأيهما أن الزيات والعقاد والمازنى تحتاج كتاباتهم إلى ترجمان ، لصعوبتها وأنها لا تفهم بلا قاموس ، ثم ذكرا الامتحان والدروس ، مع الحب والغرام ، وأماكن اللهو والتسلية ... حتى أنى لم أعد أطيق الصبر فنزلت وركبت تراماً آخر ...

هذان مثالان لطبقة من نسائنا ورجالنا ، يبديها الترام إن أخفتها البيوت ، طبقة هى فى الأمة كالديناميت فى البناء ، والسم فى الجسم ، والقذى فى العين ، وهى وإن تكن نادرة فينا . ولم تكن تخلو أمة من مثلها — لا ينبغى للمصلحين منا أن يغفلوا عنها ، ويهملوا إصلاحها ، لأننا أمة تستعيد اليوم حريتها ، وتبدأ جهادها وتسعى لتصل ما انقطع من أمجادها ، ولا ينال المجد إلا بشباب أولى خلق وعلم ، ونساء أولات عقل وعفاف .

ولكنّ فى الترام ، فى مقابل هذه الصور التى تؤلم وتسوء صوراً تسرّ وتفرح ، لقيت فيه أمس فلاحاً من فلاحى مصر بجلبابه و (طاقيته) وزيّه ، وكان معى صديق يتكلم فى الجلاء عن مصر ، وفى جامعة الدول العربية ، فاندفع والله هذا الفلاح فى حديث عن السياسة والنزاع بين الدول الكبرى ، وموقف هذا الشرق الأدنى ، وما يتوقع له ، وفصّل القول فى حالة مصر والشام والعراق والمغرب والحجاز واليمن ، فكانت محاضرة مرتجلة استمرت أكثر من نصف ساعة ، مشى فيها الترام من القسطاط إلى شبرا ، لو أن سياسياً دعا الناس إلى أنفع ناد من النوادى ، فأتى عليهم مثلها لخرجوا معجبين .

ولقيت فى الترام فلاحاً آخر ، مرّ به جابى الترام فناداه ، « يا أفندى » فقال له : « ما فيش أفندية دى الوقت ، الفلاحين هم أسياد البلد » ! يقظة عجيبة ، وكلام عظيم ، وسيكون أعظم يوم يصير الفلاحون أسياد البلد حقاً ، يوم لا يبقى فى مصر شركة أجنبية ، ولا مصرف أجنبى ، يوم لا يبقى فى مصر شحاد مصرى ، يوم يكون المصريون أعلم من الأجانب وأنظف منهم وأحرص على الصحة وأفهم للحياة وأسبق إلى المتاجرة ، وسيجىء هذا اليوم قريباً بحول الله .

أيها السادة والسيدات .

(١) من نوع الحرباء والحرذون .

إن الترام يكشف أخلاق الناس ، وطبائع البلدان ، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه ، والحسن فيتعلمه ويستمتع الملاحظ الدقيق بعد هذا كله بفصول (الفلم) البشرى المعروض عليه

هذا فصل من الرواية : رفيقان يدعان الأمكنة الخالية ، ويجلسان حولك هذا عن يمينك وهذا عن شمالك ، ويتحدثان فى أمورهما الخاصة بهما ، من فوق رأسك ، لا يحفلان بك ولا ببالياتك ، كأنما أنت كرسى أو متكأ أو كأن أذنيك شباك يتكلمان منه ...

وهذا فصل آخر : رجل طويل عريض ، لا يطيب له أكل (بذر البطيخ) إلا فى الترام ، فلا يزال يقضمه بأسنانه ، ويقذف قشره بلسانه ، فإن لم يصب به الناس ، آذاهم بقبح منظره ، وسوء أدبه ...

وهذا رجل يأتيك من خلفك وأنت واقف فى زاوية الترام ، يرجوك أن تفسح له ليمرّ ، فإذا ازحت له أخذ مكانك وتركك حائراً لا تدرى أين تقف !

وهذا عامل بثيابه الملوثة بالزيت المعدنى ، أو الملطخة بالطين ، يحتك بك وأنت بثيابك البيض فلا يدعك حتى ينقل إليك زيته وطينه ، فإن تكلمت قال : ليه ؟ هوّ احنا مش بنى آدم !

وهذه امرأة ضخمة عريضة القفا ، تصعد ومعها ولد على ظهرها ، وولد تسحبه بيدها ، وسلة كبيرة فيها سمك وبصل وكراث ، فتقعد على الأرض ، فتشغل مكاناً كان يقف فيه عشرة رجال ، ثم لا تزال تسب هذا لأنه داس على ثوبها ، وتشتم ذاك لأنه مسّ ولدها .

وهذا عجوز ثرثار ، لا يفتأ الطريق كله ، يذم هذا الشعب لأنه لم يتعلم أن النزول يكون من مقدم الترام ، والركوب من آخره ويعجب من جهله وقلة تربيته ، ولا يزال كذلك حتى يصل إلى محطته ، فينسى محاضرته الطويلة ، وينزل من خلف لامن قدام

وهذا رجل منتفخ كأنه الديك الرومى ، مزهوٌّ كالطاووس يقعد أمامك فلا يرضيه ألا يمتد ويبرز بطنه ويؤخر رأسه ويرفع رجله فى وجهك ، حتى يقابلك نعلها ، ويكاد يمسك طرفها ... ثم إنه إذا لمح الجابى أسرع بالنزول ولم يدفع ثمن التذكرة !

وهذا شيخ له عمامة وعذبة ، لا يحب أن يذكر الله إلا على سبحة طويلة يرفعها بيده حتى يراها الناس كلهم ، ولا يتمسك بسنة السواك إلا فى الترام ، فيخرجه من جيبه طويلا ضخماً ، فيستاك به على أبشع هيئة ، ثم يعصره بأصابعه ويبصق على الأرض وإذا انتقده أحد ، نادى : يا ضيعة الدين ، ويا بوار الأخلاق ...

وهذا فصل آخر (يمثله) السائق ، يقف فى المحطة يشترى طبق الفول ورغيف الخبز ، ويتباطأ بعدها فى سيره ليأكله ، حتى إذا وجد أنه تأخر وفاته الموعد ، أسرع إسراع المجنون ، ولم يمهل المرأة حتى تركب ولدها وتركب بعده ، فيبقى الولد فى الترام خائفاً يصيح ويبكى يكاد يلقى بنفسه ، وأمّه تمدو وراء الترام ، والناس يصرخون من كل جانب ...

وفى الترام دليل على طباع كل قطر ، ونموذج من حياته ، فى الشام عراك على النزول والصعود ، وتسابق فظيع إلى المقاعد لأن فيه شعباً حديث عهد بالجهاد والنضال ، ولأن الترام له أول وله آخر ، فالناس يركبون معاً وينزلون ، وفى مصر تدور أكثر الترامات ، دوران السوانى ، وتكر كرّ الأيام ، لا أول لها ولا آخر ، والناس ينزلون ويصعدون فى كل مكان ، وفى مصر شعب وادع أليس فإذا فرغ مقعد فى الدرجة الأولى رأيت كلاً يدعو الآخر إليه . والفرق فى الشام وبيروت بين ركاب الدرجة الأولى والثانية قليل لا يكاد يظهر فى زىّ ولا حديث ، وهو فى مصر ظاهر بيّن ، لأن شعار مصر التفاوت فى كل شىء ، فليس فى الشام ساحله وداخله ، أغنياء من الوزن الثقيل ولكن ليس فيه أيضاً إلا القليل من الفقراء المدقعين ، وليس فيه علماء كبار جداً ، ولكن ليس فيه أيضاً أمية طاغية ، وجهالة منتشرة ، أما مصر ففيها أشد الغنى وأشد الفقر ، وفيها العلم والجهل ، والقصور والأكواخ ، بل إن فيها شارعاً واحداً ، فى أوله الملاهى والمسارح فكأنك منه فى باريز وفى أوسطه البنوك والمصارف ، فكأنه من نيويورك ، وآخره شارع من شوارع الرقة أو الميادين والترام فى الشام هدف كل مظاهرة ، وغاية كل إضراب ، فإن كان للشعب احتجاج على الحكومة ، كسر الترام ، وإن كان للطلاب مطلب من المعارف أحرقوا الترام ، وإن شكا الناس من سوء الخبز ، أو كثرة الضرائب حطموا الترام ، لأنه رمز السيادة الاقتصادية الأجنبية ، وأهل الشام لا يحتملون لأجنبى سيادة لا فى الحكم ولا فى المال .

إن حديث الترام طويل ، ووقت الحديث القصير ، وقد استنفدته كله وزدت عليه ، وأنا أرجو إن أطلتكم عفوكم ، وأشكر لكم على سماعه صبركم ، والسلام عليكم .

(القاهرة) **على الطنطاوى**